من أخبار المسافرين (٥)

الغريب

أبوعبدالله الكُلْثُوميُّ النَّحويُّ من الفضلاء الكبراء علاَّمةٌ في الإعراب واللغة والحساب ومعرفة الأيام والنجوم والأنساب، كان في سفرٍ من أسفاره، فدخل خُوَارَزْمَ مع عدَّةٍ من الأدباءِ والشعراء حين ضاقَ بهم الحالُ فأثرت في قلبه الغربة، وهاج في صدره الحنين فقال:

تقول سعادٌ ما تغرَّدَ طائرٌ ... على فَنَنٍ إلاَّ وأنتَ كئيبُ
أجارَتَنَا إنَّا غَرِيبَانِ ههُنَا ... وكُلُّ غريبٍ للْغَرِيبِ نَسيبُ
أجارَتَنَا إنَّ الغَرِيبَ وإنْ غَدَتْ ... عليهِ غَوَادي الصَّالِحاتِ غَرِيبُ
أجارَتَنَا مَنْ يَغْتَرِبْ يَلْقَ لِلأَذَىٰ ... نوائِبَ تُقْذِي عَيْنَهُ فَيَشِيبُ
يحِنُّ إلى أوطانه وفؤادُهُ ... لهُ بين أحنَاءِ الضُّلُوعِ وجِيبُ
سقى الله ربْعاً بالعراق فإنه ... إلـيَّ وإنْ فـارَقْتُـهُ لَحبيـبُ
أحنُّ إليهِ من خُرَاسَانَ نازِعاً ... وهيْهَاتَ لو أنَّ المَزَارَ قَرِيبُ
وإن حنيناً من خُوارزمَ ينتهي ... إلى مُنتَهى أرضِ العراقِ عجيبُ

البارودي والغربة

البارودي ذلك الشاعر العظيم يقول حينما نُفي إلى سرنديب:

لبيك يا داعي الأشواق من داعي ... أسمعتَ قلبي وإن أخطأت أسماعي
ويلاه من حاجة في النفس هام بها ... قلبي وقصّر عن إدراكها باعي
أسعىٰ لها وهي مني غير دانيةٍ ... وكيف يبلغ شأوَ الكوكب الساعي
يا حبذا جُرعةٌ من ماء مَحْنِيَة ... وضجعةٌ فوق بَرْد الرمل بالقاعِ
يا من تراني بذاك الحيِّ مجتمعاً ... بأهل ودِّيَ من قومي وأشياعي
لا في «سرنديب» خلٌّ أستعين به ... على الهموم إذا هاجت ولا راعي
أظلُّ (فيها) غريب الدار مبتئساً ... نابي المضاجع من همٍّ وأوجاعِ
أكفُّ غرْبَ دموعي وهي جارية ... خوف الرقيب وقلبي جدُّ ملتاعَ

وهذه مقطوعة أخرى من روائع البارودي البكائية:

فيا دموع القطر سيلي دماً ... ويا بنات الأيك نوحي معي
وأنت يا عين إذا لم تفي ... بذمة الدمع فلا تهجعي
صبابةٌ أغرت عليَّ الأسىٰ ... ودلّت السُّهْدَ على مضجعي
ويلاه من نار الهوى إنها ... لولا دموعي أحرقت أضلعي
أبيت أرعىٰ النجم في سدمةٍ ... ضلّ بها الصبح فلم يطلعِ
طوراً أداري لوعتي بالمنى ... وتارة يغلبني مدمعي
فهل إلى الأشواق من غايةٍ ... أم هل إلى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلبُ علىٰ ما مضىٰ ... لابدّ للمحنة من مقطعِ

وانظر إلى قوله في هذه المقطوعة الرائعة والأبيات الناصعة والكلمات الخاشعة:

سَلْ مالكَ الملك فهو الآمرُ الناهي ولا تخفْ عادياً فالحكم لله
هو الذي ينعشُ المظلومَ إن عَلِقتْ به الرّزايا، ويجزي كلَّ تياه
فاسجد له واقترب، تبلغ بطاعته ما شئت في الدهر من عزٍّ ومن جاهِ
ياربِّ قد طال بي شوقي إلى وطني فاحلل وثاقي وألحقني بأشباهي
وامنن عليَّ بفضلٍ منك يعصمني من كلِّ سُوءٍ فإني عاجزٌ واهي
هذا دعائي وحسبي أنتَ من حكمٍ يعنو له كلّ شاهٍ أو شَهِنْشَاهِ

وقد استجاب الله لكلمات البارودي هذه وسمع دعوته فألهم الولاة في مصر أن يفكوا أسره وعاد إلى مصر في اليوم السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧هـ بعد نَفْي وغربة عن بلده بلغت أكثر من سبعة عشر عاماً!!.

ومن أعذب ما سمعت، وأجمل ما قرأت، وأعجب ما رأيت من قصائد الغربة والحنين والتألم من الفراق هذه القصيدة الساحرة، التي إذا قرأها صاحب الضمير المتوقد والعاطفة الجياشة فإنه ينثر الدموع مدراراً ويلتهب فؤاده ناراً، ففيها من صدق العاطفة، واستجاشة المشاعر ما يبكي العيون ويهز القلوب. لقد قرأت القصيدة أول ما قرأتها، فوضعتُ يدي على قلبي أتلمّسُ مكانه، وأتفقّدُ نبضاته، الفؤاد يخفق، والعين تدمع، والأحشاء تلتهب، لا إله إلاَّ الله، إن من البيان لسحراً، القصيدة يرويها إسحاق الموصلي عن أحد الأعراب:

أَلاَ سامح الله الحمَامَةَ غُدْوَةً على الغُصْنِ ماذا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ
تَغَنَّتْ بِصَوتٍ أعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ مِنَ الوَجْدِ ما كانَتْ ضُلُوعِي أَجَنَّتِ

فَلَوْ قَطَرَتْ عَيْنُ امرئ مِنْ صَبَابَةٍ ... دَماً قَطَرَتْ عَيْنِي دَماً وأَبَلَّتِ
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوَيْتُ لِصَوْتِهَا ... وَقُلتُ أَرَى هَذِى الحمَامَة جُنَّتِ
وَلِي زَفَرَاتٌ لَوْ يَدُمْنَ قَتَلْنَني ... بِشَوْقٍ إلى هَاتِي الَّتِي قَدْ تَوَلَّتِ
إِذَا قُلْتُ هَذِي زَفْرَةُ اليَوْمِ قَدْ مَضَتْ ... فَمَنْ لي بِأُخْرَى فِي غَدٍ قَدْ أَظَلَّتِ
فَيَا مُنْشِرَ المَوْتَى أَعِنِّي عَلَى الَّتي ... بِهَا نَهَلَتْ نَفْسِي سِقَاماً وَعُلَّتِ
لَقَدْ بَخِلَتْ حَتَّى لَو انِّي سَأَلْتُهَا ... قَذَى العَيْنِ مِنْ سَافِي التُّرَابِ لَضَنَّتِ
فَقُلْتُ ارْحَلاَ يَا صَاحِبَيَّ فَلَيْتَني ... أَرَى كُلَّ نَفْسٍ أُعْطِيَتْ مَا تَمَنَّتِ!
حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ مَا أُمُّ وَاحِدٍ ... إِذَا ذَكَرَتْهُ آخِرَ اللَّيْلِ أَنَّتِ
ولاَ وَجدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا ... صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ
إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعُذَيْبِ وَطيبَه ... وَبَرْدَ حَصَاهُ آخِرَ اللَّيلِ حَنَّتِ
بِأَكْثَرَ مِنِّي لَوْعَةً غَيْرَ أَنَّنِي ... أُطَامِنُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجَنَّتِ

وبين الغرباء والحَمَام صلة ونسب:

فمن أكثر قصائد الغربة أثراً وتفجعاً تجد أن الذي أثار الشاعر فترنم بها هو نَوْح الحمام وصدوحه. فهناك قصائد كثيرة في غاية من الحسن والجمال، ومن أعذبها لحناً، وأجملها نظماً، وأبعدها أثراً قصيدتان حائيتان الأولى منهما للشاعر المسمى فخر الدين صاحب تكريت، وهي التي سأوردها الآن والأخرى لابن محلّم وسوف ترد معنا في أخبار المسافرين.

واختيار الحاء قافيةً لهاتين القصيدتين له دلالة معينة، وأثرٌ متميز، فهو يرمز للنوح والصدوح، وهو خير معبِّرٍ عن الحرارة التي تسكن الفؤاد، وعن نار الغربة التي تحرق الأحشاء.

يقول فخر الدين:

وما ذات طوقٍ في فروع أراكةٍ لها رنةٌ تحت الدجى وصدوحُ
ترامت بها أيدي النوى وتمكّنتْ بها فرقة من أهلها ونزوح
فحلَّت بزوراء العراق وزُغْبُهَا بعُسفان ثاوٍ منهم وطليحُ
تحنُّ إليهم كلما ذرّ شارقٌ وتسجع في جُنْح الدجى وتنوح
إذا ذَكَرَتهُم هَيّجتْ ذا بلابلٍ وكادتْ بمكتوم الغرام تبوحُ
بأبرحَ من وجدي لذكراكُمُ متى تألّق برْقٌ أو تنسَّم ريحُ

وهذا شاعرٌ آخر يخاطب الحمام فيقول:

حمامِ الآراك ألا فاخبرينا لمن تندبين ومن تُعْوِلينا
فقد شُقتِ بالنوحِ منَّا القلوب وأبكيتِ بالندبِ منَّا العيونا
تعالَيْ نُقمْ مأتَماً للهموم ونعولُ إخواننا الظاعنينا
ونسعدكنَّ وتسعدننا فإن الحزين يُواسي الحزينا

وهذا أبوفراس الحمداني ابن عمّ سيف الدولة قال هذه القصيدة وهو في السجن أَسَرَهُ الرومُ في إحدى الحروب فنامتْ حمامةٌ بالقُرب منه فأثارت مشاعره وهزّت وجدانه فقال:

أقول وقد ناحت بقربي حمامةٌ أيا جارتا هل بات حالك حالي
معاذ الهوى ماذقتِ طارقة النوى ولا خطرت منكِ الهمومُ ببالِ
أتحمل محزونَ الفؤاد قوادمٌ على غُصُن نائي المسافة عالي
أيا جارتا ما أنصف الحظ بيننا تعالي أُقاسِمْكِ الهموم تعالي
تعالي ترَيْ روحاً لديَّ ضعيفةً تردَّدُ في جسمٍ يُعَذَّبُ بالي
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالي

لقد كنتُ أولى منكِ بالدمع مقلةً ولكنَّ دمعي في الحوادث غالي

وإليك رائعة أخرى من روائع الشعراء والحَمَام:

ذكر الأحباب والوطنا والصبا والإلف والسكنا
فبكى شجواً وحُقّ له مدنفاً بالشوق حلفَ ضنى
أبْعَدَتْ مرميّ به رجمتْ من خراسان به اليمنا
مـن لمشتـاق تُمَيِّلـه ذاتُ سجـع مَيَّلـتْ فننـا
لم تُعرِّض في الحنين بمن مسعـد إلا وقلـت أنـا
لك يا ورقاء أسوة من لم تذيقي طرفه الوسنا
بك أنسي مثل أنسك بي فتعـالـي نبـد مـا كمنـا
نتشـاكـى مـا نجـن إذا بُحْتِ شكوى صِحتُ واحزنا
أنا لا أنت البعيد هوى أنا لا أنت الغريب هنا
أنا فرد يا حمام وها أنت والإلف القرين ثنا
اسرحا رأد النهار معاً واسكـنا جنح الدجى غصنا
وابكيا يا جارتيَّ لما لعبت أيدي الفراق بنا
أين قلبي ما صنعت به ما أرى صدري له وطنا
كان يوم النفر وهو معي فأبى أن يصحب البدنا
أَبِهِ حادي الرفاق حدا أم له داعي الفراق عنا

وهذا الشاعر عبدالله بن الدمينة المتوفى عام ١٤٢هـ على التقريب، يغترب عن وطنه، ويخاطب الحمامات في غربته، ويدعوهن إلى الهديل لأنه يريد أن يسمع أصواتهن. فلما استجبن له، كاد يموت، وكاد يفضح أسراره، لأن حاله من حالهن، فهو مغترب وبعيد عن أهله ووطنه، وهن

كن بنعمة، إلى أن نالتهن يد الفراق، وهو يستغرب منهن إذ يبكين بدون دموع! قال:

ألا يا حمامات اللِّوى عُدْنَ عودةً ... فإني إلى أصواتكُنَّ حزينُ
فَعُدْنَ فلما عدنَ كِدْنَ يُمِتْنَني ... وكِدْتُ بأسراري لهن أَبينُ
وعدن بقرقارِ الهديرِ كأنما ... شربنَ حُمَيّا أو بهنَّ جنونُ
ولم تَرَ عيني قبلَهُنَّ حمائِماً ... بكينَ ولم تَدْمَعْ لهنَّ عيونُ
فكنَّ حماماتٍ جميعاً بنعمةٍ ... فأصبحنَ شتى ما لهنَّ قرينُ
فأصبحنَ قد فرَّقْنَ غيرَ حمامةٍ ... لها عند عهدٍ بالحمامِ رنينُ

الأصبهاني وحَمَام الأيك

وهذه رائعة أخرى من روائع شعراء الغربة والحنين للشاعر الحسين بن علي الأصبهاني الطغرائي يخاطب فيها حمامة من حمام الأيك، أثارت شجنه، وجدَّدت حزنه، فلله درّها من حمامة، أثارت الحسين فأحسن كل الإحسان وأمتع غاية الإمتاع، وأطرب القلوب والأسماع، فقال:

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْواً عَلَى فَنَنٍ ... فَأَشْعلتْ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي
نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِنْساً وَلاَ فُجِعَتْ ... فَـذَكَّـرَتْنِـيَ أَوْطَـارِي وأَوْطَـانِـي
طَلِيقَـةٌ مِـنْ إِسَـارِ الهَـمِّ نَـاعِمَـةٌ ... أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ المُوثَقِ العَانِي
تَشَبَّهَتْ بِيَ فِي وَجْدٍ وَفِي طَرَبٍ ... هيْهَاتَ مَا نَحْنُ فِي الحَالَيْنِ سِيَّانِ
مَافِي حَشَاهَا وَلاَ فِي جَفْنِهَا أَثَرٌ ... مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلاَ مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي
يـارَبَّـةَ البَـانَـةِ الغَنَّـاءِ تَحْضُنُهَـا ... خَضْرَاءَ تَلْتَفُّ أَغْصَاناً بِأَغْصَانِ
إِنْ كَانَ نَوْحُكِ إِسْعَاداً لِمُغْتَرِبٍ ... نَـاءٍ عَـنِ الأَهْـلِ مَمْنِـيٍّ بِهِجْـرَانِ
فَقَارِضِينِي إِذَا مَا اعْتَادَنِي طَرَبٌ ... وَجْداً بِوَجْدٍ وَسُلْوَاناً بِسُلْوَانِ
مَا أَنْتِ مِنِّي وَلاَ يَعْنِيكِ مَا أَخَذَتْ ... مِنِّي اللَّيَالِي وَلاَ تَدْرِينَ مَا شَانِي
كِلِي إِلَى السُّحْبِ إِسْعَادِي فَإِنَّ لَهَا ... دَمْعاً كَدَمْعِي وإِرْنَاناً كَإِرْنَانِي

* * *

وقبل أن نطوي صفحة المساجلة بين الشعراء والحمام، وحتى لا تغضب منا بقية الطيور الصدَّاحة، وتحمل في قلبها علينا وعلى الحَمَام نختم هذه الجولة المؤثِّرة بهذه القصيدة لأحد الشعراء قالها في سفر من أسفاره يخاطب فيها طائراً سمعه يصيح ببغداد، والشاعر هو الأمير علي

ابن منقذ أخو الأمير الشهير أسامة بمن منقذ:

يا طائراً لَعِبَتْ أيدي الفراقِ بهِ مِثْلي فأصبحَ ذا همٍّ وذا حزَنِ
داني الأسَى، نَازِحَ الأوطَانِ مُغْتَرباً عن الأحبَّةِ مَصْفُوداً عن الوطنِ
بـلا نـديـمٍ ولا جـارٍ يُسَـرُّ بـهِ ولا حميـمٍ ولا دارٍ ولا سكـنِ
لكن نَطَقْتَ فزالَ الهمُّ عنك وَلِي هَمٌّ يُقَلْقِلُ أحْشَائي ويُخْرِسُنِي
وَكُـلُّ من بَـاحَ بالشَّكْـوَى اسْـتَرَاحَ وَمَنْ
أخْفَـى الجَـوَى بَـثَّ عَـنْهُ شَـاهِـدُ الـبَدَنِ
أرّقتَ عيني بنوحٍ لستُ أفهمه مَعْ ما بقلبيَ من وجدٍ يؤرِّقُني

المرأة والحنين إلى الأوطان

تمتاز المرأة برقة الإحساس، ورهافة الشعور، وشدة العاطفة، وهي كثيرة البكاء شديدة الحزن إذا ما فجعت بفقد حبيب أو قريب، حريصة كل الحرص على البقاء عند أهلها وبالقرب منهم، تكره البعد عنهم والاغتراب عن أراضيهم ولئن كان الرجل يحن إلى وطنه، وعشيرته وأهله، فيقف على أطلالهم ويبكي ويستبكي فإن المرأة أعنف شعوراً بالحنين إلى الوطن، فهي أرق عاطفة وأرهف إحساساً من الرجل، لذلك حينما ننظر إلى الشعر الذي هو المترجم الحقيقي لما في نفس قائله من عواطف وانفعالات نجد أن شعر المرأة رقيق سهل، وأن حنينها إلى أوطانها وأهليها حنين مليء باللوعة والأسى. ففي جميع النصوص الشعرية للمرأة نرى أنها تحن إلى الوطن حنيناً كبيراً مفضلة إياه على الزوج أحياناً كثيرة وعلى الديار التي تسكنها معه والمرأة لم يرد في شعرها حث على السفر والاغتراب والتحول عن الديار أبداً، على خلاف ما عند بعض الرجال من حب لذلك. ولعل موقفها هذا يعود بالدرجة الأولى إلى قوة الرابطة التي تشدها بوالديها، وعائلتها، وعشيرتها.

وإليك الآن بعض القصائد والقصص عن المرأة حينما تحن إلى الأوطان وتبكي للأهل والجيران.

١ـ رامة بنت حصين الأسدية :

يلومها الحضر إذ تساكنهم رغم حنينها المتكاثر إلى نجد، فتعجب أن تلام على حنينها وترى أن كل شيء تساكنه يذكرها بنجد ويزيد حنينها إليه

وتذكر ـ الخوّ ـ الموضع الذي عاشت فيه، تذكره وهو ممرع، مثمر بالأشجار، وتذكر المكاكي، وهو طائر صغير، تذكره وقد تردد صوته بعد منتصف الليل فتقول:

أُلامُ على نجد ومن يكُ ذا هَوىً ... يهيِّجه للشوق شيءٌ يرابعه
تُهجْهُ الجنوبُ حين تغدو بنشرها ... يمانيةً والبرق إن لاح لامِعُهْ
ومن لامني في حبِّ نجدٍ وأَهْلِهِ ... فَلِيم عَلَى مِثْلِي وأَوْعَبَ جادِعُهْ
لعمركَ للغمران غمرا مقلَّدٍ ... فذو نَجَبٍ غُلاَّنُهُ فدوافعه
وخوٌّ إذا خوٌّ سقته ذهابه ... وأمرعَ منه تينه وربائعه
وصوتُ مكاكيٍّ تجاوبَ موهِناً ... من الليل من يأرق له فهو سامعُه
أحبُّ إلينا من فراريجَ قريةٍ ... تزاقي ومن حيٍّ تَنِقُّ ضفادعُه

أوعب جادعه: قطع لسانه. الغمران: تثنية الغمر، وهو الماء الكثير المغدق، وهو اسم موضع في بلاد بني الأسد.

٢ـ زينب الضبيّة:

تتزوج فيحملونها من البادية إلى الحضر، وتُسأل يوماً: أليس هذا الحضر أطيب مما كنت فيه في البادية؟ فتنكر ذلك وتفضل مظاهر البداوة الخشنة، ورياح نجد على حياة الحضر وملاعبه. وتقسم أنها مهما طال بها المدى فلن تنسى أبداً ديارها في البادية:

أقول لأدنى صاحبيَّ أُسِرُّهُ ... وللعين دمعٌ يحدِر الكحلَ ساكبه
لعمْرِي لَنَهرٌ باللِّوى نازح القذى ... نقيُّ النواحي غيرَ طَرْقٍ مشاربه
أَحَبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... للعبٍ ولم تملُح لديَّ ملاعبه
وريحُ صبا نجدٍ إذا ما تنسَّمَتْ ... ضحىً أوسرت جُنْحُ الظلام جنائبه

فيا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابه إذا هضبته بالعشيِّ هواضبُه
وأُقسم لا أَنساه مادمت حيةً ومادام ليلٌ من نهارٍ يعاقبُه
ولازال هذا القَطْرُ يسفر لوعة بذكراه حتى يترك الماء شاربه

٣ـ وجيهة بنت أوس :

لامتها إحدى العاذلات على ما يبدو منها من شوق وصبابةٍ لوطنها، فتستغرب هذا العذل وتظهر حنينها وحبها لأهلها وأرض عشيرتها وتذكر أن الرياح لو كانت تعقل وتفهم لخاطبتها وناجتها وحَمَّلتها تحيتها وطلبت إليها أن تبقي هذه التحية نقية خالصة نابعة من القلب غير مختلطة بتراب الريح. تقول:

وعاذلةٍ تغدو عليَّ تَلُومُني على الشَّوْقِ لم تَمْح الصَّبابةَمن قلبي
فماليَ إن أحبَبْتُ أرضَ عَشِيرَتي وأبْغَضْتُ طَرْفَاءَ القصَيْبَةِ من ذَنْبِ
فلو أنَّ ريحاً بَلَّغَتْ وَحْيَ مُرْسِلٍ حَفِيٍّ لناجَيْتُ الجنُوبَ على النَّقْبِ
فقُلتُ لها أدّي إليهم رسالتي ولا تخْلِطِيها طال سعْدُك بالتُّرْبِ
فإني إذا هَبَّت شمالاً سألتُها هل ازداد صُدَّاحُ النُمَيْرَة مِنْ قُرْبِ

٤ـ ميسون بنت بحدل الكلابية :

يروى أنه تزوجها معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ ونقلها من البادية وأسكنها في دار الخلافة في الشام، وجعلها في قصر منيف مع ناعم المأكل والملبس والحيوانات الأليفة، والعيش الطريف، ولكنها لا تعجبها كل مظاهر الحضارة هذه، بل تحن إلى الخشونة في حياة البادية التي أشربتها في دمها وأحاسيسها وكانت تكثر الحنين وتتذكر مسقط رأسها

فأنصت لها معاوية ـ رضي الله عنه ـ في يوم من الأيام فسمعها تنشد الأبيات التالية:

لَبَيْتٌ تخفُقُ الأرْواحُ فيه ... أحبُّ إليَّ من قصرٍ مُنِيْفِ
وبَكْرٌ يَتْبَعُ الأظعانَ سَقْباً ... أحبُّ إليَّ من بَغْلٍ زَفُوفِ
وكلبٌ ينْبَحُ الطُّراقَ عني ... أحبُّ إليَّ من قِطٍّ أليفِ
ولُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفُوف
وأكلُ كُسَيْرةٍ في كِسْرِ بيتي ... أحبُّ إليَّ من أكلِ الرَّغيفِ
وأصواتُ الرياحِ بكُلِ فَجٍّ ... أحبُّ إليَّ من نَقْرِ الدُّفُوفِ
وخِرْقٌ من بني عمي نَحيفٌ ... أحَبُّ إليَّ مِنْ عِلْجٍ عَلِيفِ
خشُونَةُ عِيشَتي في البدو أشْهَى ... إلى نَفْسِي من العَيشِ الطَّرِيفِ
فما أبْغِي سوى وطني بَدِيلاً ... فَحَسْبي ذاكَ مِنْ وطَنٍ شَرِيف

فقال لها معاوية: ما رضيت يابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عليفاً، فالحقي بأهلك، وطلقها.

٥ـ أسماء المرية:

تزوجها رجل من تهامة ونقلها إليها، فحنَّت إلى أهلها حنيناً عظيماً ثم خاطبت جَبليْ نعمان أن يخليّا نسيم الصّبا يصل إليها، فإن نسيم الصبا إذا هبّ على قلب محزون، تخف همومه وأحزانه كما أنها تجد في ريح الصبا ما يشفي حرارة كبدها ويبرد لوعتها:

أيا جَبَلَيْ نَعْمانَ باللهِ خَلّيا ... نَسِيمَ الصَّبا يَخْلُصْ إليَّ نَسِيمُهَا
فإنَّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تَنَفَّسَتْ ... على قَلْبِ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُها
أجِدْ بَرْدَهَا أو تَشْفِ مِنّي حَرارَةً ... على كبدٍ لَمْ يَبْقَ إلاَّ صَمِيمُهَا

أيـا جَبَلَـيْ وادي عُـرَيْعِـرةَ التـي ... نأتْ عن نَوى قَوْمٍ وَحُمَّ قُدُومُهَا
ألا خَلّيـا مَجْـرَى الجَنُـوب لَعَلَّـهُ ... يُدَاوي فُؤادي مِنْ جَواهُ نَسيمُهَا
وَكَيْفَ تُدَاوي الريحُ شَوْقاً مُمَاطَلاً ... وَعَيْناً طويلاً بالدُّمُوعِ سُجُومُها
وَقُـولا لِـرُكْبَـانٍ تميميَّـةٍ غَـدَتْ ... إلى البَيْتِ تَرْجُو أن تُحَطَّ جُرومُهَا
بـأنَّ بـأكْنـافِ الـرُّغـام غَـرِيبَـةً ... مُـولَّهَـةً ثَكْلَـى طَـويـلاً نَئيمُهَـا
مُقَطَّعَةً أحْشَاؤهَا مِنْ جَوَى الهَوَى ... وَتَبْريح شَوْقٍ عَاكِفٍ ما يَرِيمُهَا

[راجع كتاب شاعرات العرب/ عبدالبديع صقر، وكتاب الحنين إلى الوطن حتى العصر الأموي/ محمد إبراهيم حُوَّر]

الإبل تشارك في الحنين

باتت تشوقني برجع حنينها وأزيدها شوقاً برجع حنيني
نضوين مغتربين بين تهامة طويا الضلوع على هوىً مكنونِ
لو سُوئلَت عنها القلوص لأخبرتْ عن مستقَرٍّ صبابةٍ وشجونِ

كانت الإبل أهم وسيلة من وسائل التنقل لدى القدماء فعليها يسافرون وبها يرتحلون ويغتربون، وكان العربي يُشْرك راحلته معه في مشاعره وأحاسيسه فيجعلها كأنها تحس بأحاسيسه وتشتاق لشوقه، وتحن لحنينه، وتفرح لفرحه، وتحزن لحزنه، ولذلك كانت مقدمات القصائد في الغالب تبدأ بالحديث عن الأطلال والمقدمات الغزلية ثم يتحدث الشاعر عن راحلته، ويصفها وصفاً دقيقاً ويضفي عليها من النعوت والصفات الشيء الكثير ويذكر معاناتها في الرحلة وما لاقته من تعب المسير ومشقة الرحلة، خاصة إذا كانت رحلة الشاعر إلى أحد الأمراء أو الأغنياء ليكون ذلك أكثر قبولاً وأعظم تأثيراً في نفسه فيجـود عليه بالعطايا والهبات الكثيرة. والذي يعنينا هنا هو مشاركة هذه النوق لأصحابها فى الحنين إلى الأوطان.

هذا الشاعر الأموي عودة بن حزم من الشعراء العذريين، كان يحب عفراء ابنة عمه حبّاً عظيماً، يصور لنا أن ناقته أيضاً تحب وتحن ولكنها تحن إلى اليمن بينما هو يحن إلى العراق لأن حبيبته فيه وقد رحل عنها ليأتي بمهرها وهو يصور لنا أن ناقته أحسن حظًّا منه لأنها تحن وتبدي حنينها أما هو، فيحن ويخفي حنينه الذي يكاد يقضي عليه لولا تأسيه بغيره

من العشاق الذين رحلوا عن أحبابهم يقول:

فمن يكُ لم يقرِضْ فإني وناقتي بحجرٍ إلى أهل الْحمى غَرِضانِ
هوى ناقتي خلفي وقُدَّاميَ الهوى وإنـــى وإيَّـــاهـــا لمختلفـــانِ
تَحِنُّ فتُبدي ما بها من صبابةٍ وأُخفي الذي لولا الأسى لقَضَاني
فيا كبدينا أَجملا قد وجدتما بأهل الْحمى ما لم يَجِدْ كَبدانِ
إذا كبدانا خافتا وشكَ نِيَّةٍ وعـاجـلَ بَيْـنٍ ظلَّتـا تجبـانِ

وهذا الفرزدق يحن إلى أهله ووطنه حينما كان يبيت مع صَحْبٍ له بدير حسان ويتوهم أن ناقته تبكي حنيناً إلى الوطن ويهيجه حنينها، فيذكِّره دياره وأهله فيحن حنيناً صادقاً حتى يضنيه السهر، فتنهل دموعه ولديه من دواعي الحنين ما ينوف على دواعي حنين ناقته فما أروع ما قال:

وليلـة بتنـا ديـرَ حسَّـانَ نبَّهـتْ هُجُوداً وعيساً كالخَسِيَّات ضُمَّرا
بَكتْ ناقتي ليلاً فهاج بكاؤها فؤاداً إلى أهلِ الوريعةِ أصورا
وحنت حنيناً منكراً هيَّجت به على ذي هوى من شوقهِ ما تنكرا
فبتنـا قعـوداً بيـن ملتـزم الهـوى وناهي جمان العين أن يتحدَّرا
ترومُ على نعمانَ في الفجرِ ناقتي وإن هي حنَّت كنتُ بالشوق أعذرا

الخسيات: القسي. أَصورا: أَمْيَل.

وهذا جرير يغترب فيحن إلى أهله وتحن قلوصه فيطلب منها أن يكون حنينها رويداً رويداً لكي لا تهيج حنينه وأشواقه:

تحن قلوصي بعد هدءٍ وهاجها وميضٌ على ذات السلاسل لامعُ
فقلـت لهـا حنِّـي رويـداً فـإننـي إلى أهل نجدٍ من تهامة نازعُ

وهذه أم المثلم الهذلية بعد هدوء صبابتها تحن قلوصها فيرتاع قلبها

كما يرتاع قلب قلوصها ولكنها تحاول أن تعزيها وتعزي نفسها بأن كل قرينة لابد أن تفارق قرينها، ولكن هذه القلوص لا ترعوي عن الحنين:

وحنَّت قلوصي بعد هدءٍ صبابةٍ ... فيا روعةً ما راع قلبي حنينها
حنَتْ في عقاليها وشبَّ لعينها ... سنى بارقٍ يسري فجُنَّ جنونها
فقلت لها صبراً فكلُّ قرينةٍ ... مفارِقُها لابد يوماً قرينُها
وما برحت حتى ارعوينا لصوتِها ... وحتى انبرى منا معينٌ يعينها
وقلت لها حِنِّي رويداً فإنني ... وإياك مبدي لوعةً سنبينها

وقال الشريف الرضي:

أقول وقد حنت بذي الأثل ناقتي: ... قرى لا ينل منك الحنين المرجّعُ
تحنين إلاَّ أن بي لا بك الهوى ... ولي لا لك اليوم الخليط المودّع
وباتت تشكي تحت رجلي ضمانة ... كلانا إذاً يا ناقُ نِضْوٌ مفجّعُ
أحسّت بنار في ضلوعي فأصبحت ... يخبُ بها حر الغرام ويوضعُ

وقال أبوعبدالله البارع المتوفى سنة ٥٢٤هـ:

دع المطايا تنسّم الجنوبا ... إن لها لنبأً عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا ... يشهد أن قد فارقت حبيبا
رأتْ بنجد بارقا كذوبا ... أذكرها عهد هوى قريبا
فغادر الشوق لها حنيناً ... يضرم في فؤادها لهيبا
تروم لمَّا استشرفت كثيبا ... كأن بالرمل لها سقوبا
يمسي إذا حنت لها مجيبا ... لو غادر الشوق لنا قلوبا
إذاً لآثرنا لهن النيبا ... إن الغريب يسعد الغريبا

ذم السفر والاغتراب

ذكرنا في فوائد السفر أن كثيراً من الشعراء امتدحوا الأسفار ورحَّبوا بالاغتراب ورأوا فيه فوائد عظيمة، ومصالح كبيرة، وخاصة إذا كان لطلب الرزق واكتساب المعيشة، إلاَّ أننا نجد أن هنالك عدداً من الشعراء شنَّعوا على الغربة، ورفضوا مفارقة الأوطان، والبعد عن الأهل والجيران ورأوا أن في ذلك مذلَّة للإنسان، وعبئاً وهماً وأحزاناً:

إن الغريب ولو يكون ببلدةٍ ... يجبى إليه خراجُها لغريبُ
وأقل ما يلقى الغريب من الأذى ... أن يستذلَّ وقولهُ مكذوبُ

وقال ابن الهبارية:

قالوا أقمتَ وما رُزقت وإنما ... بالسير يكتسب اللبيبُ ويرزقُ
فأجبتهم ما كل سيرٍ نافعٌ ... الحظ ينفعُ لا الرحيل المقلقُ
كم سفرةٍ نفعت وأخرى مثلها ... ضرَّت ويكتسب الحريصُ ويخفقُ
كالبدر يكتسبُ الكمالَ بسيره ... وبه إذا حرم السعادة يمحقُ

وقال الآخر:

وإن اغترابَ المرءِ من غير فاقةٍ ... ولا حاجة يسمو لها لعجيبُ
فحسب الفتى ذلاً وإن أدرك الغنى ... ونال ثراءً أن يقال غريبُ

وانظر إلى الطرافة العجيبة في قول ابن الدهان:

قالوا: اغترب عن بلاد كنت تألفها ... إن ضاق رزقٌ تجد في الأرض منتزحا
قلت: انظروا الريق في الأفواه مختزناً ... عذباً فإن بان عنها صار مطَّرحا

ويقول الآخر:

ويحَ الغريب على الأشواك مضجعهُ ... وخبزهُ من عجين الهم والنصب
يعيشُ عن ربعه بالجسم مغترباً ... وقلبُه وهواه غيرُ مغتربِ
يستقبلُ الليلَ لا تغفو هواجسهُ ... ويوقظ الفجر في جيشٍ من الكربِ
موزعُ الروح إحساساً وعاطفةً ... مقسمُ الفكر في بعدٍ وفي قُرُبِ

وقال الزركلي:

العينُ بعد فراقها الوطنا ... لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ليت الذين أحبهم علموا ... وهم هنالك ما لقيتُ هنا
إن الغريبَ معذبٌ أبداً ... إن حل لم ينعمْ وإن ظعنا

وهذا عائض القرني يصيح بالأسفار فيقول:

تخلف عن الأسفار إن كنت عاقلاً ... بصيراً ففي الأسفار عشر مصائب
تحمُّلُ همٍّ واختفاء أحبةٍ ... وإهمالُ أبناءٍ وتعطيل واجبِ
وإتعاب جسم ثم فرقة موطن ... وتضييع مالٍ وانتظار نوائبِ
ووحشة بَيْنٍ واختلاف طبائعٍ ... حكمت بهذا بعد طول التجاربِ

معاناة مسافر

* القصيدة للمؤلف

مضيت مشتاقًا لجو السفر ... لـم أستشـر قلبـي ولا حبـي
أمنيتي أن أنبري سائحًا ... أطوف من شرق إلى غرب
ظننتُ أني سوف أسلوبما ... ألقى من الإسعاد في دربي
ودعت من أهديته مهجتي ... لـم أستمـع للـوم والعتـب
ودعتها لم يثنني حزنها ... أو دمعها المنهل كالغرب
تـرفـع كفيهـا إلـى ربهـا ... امنن بحسن الصبر يا رب
مضيتُ مسرورًا بما نلته ... من فيض ذاك المشرب العذب
ودعتها والفكر يرنو إلى ... أنسٍ مع الإخوان والصحب
فسلَّ قبطان الأسى سيفه ... وقاد جيش الهم للحرب
واستأسروني لم يبالوا بما ... فاديتُ من دمعي ومن رُعبي
وكلُّ حُلْوٍ عاد مرًّا فما ... ألتـذُّ فـي زادٍ ولا شُـرْبِ
والمنظر الخلاب في ناظري ... أراه مثـل القفـر والجـدب
لو حِيْزت الدنيا بأفنانها ... وأُهْدِيتْ للعاشِق الصَّبِّ
فـإنهـا تبـدو لـه علقمًـا ... يُذكي ضرام الهم والكرب
لا يسعد الولهان إلاَّ بما ... يحظى به من روعة القُرب
لو نال من محبوبه نظرة ... فـإنهـا مـن أعظـم الكسـب
إني كرهتُ البعد مهما يكن ... فيـه مـن الغـايـات والإرب
شربتُ في بعدي كؤوس الأسى ... حسبـيَ مـا لاقيتـه حسبـي

وظلَّ تفكيري بمحبوبتي مستولياً مني على لبي
وحين رُمْتُ الوصلَ أضحى الرضا يضيء في الأجواء كالشهب
يممت وجهي نحوها فانتشى فكري وبات الأنس من حِزْبي
طارت همومي حين أبصرتها وأزهر السلوان في دربي

* * *